

التفكير الفلسفي في الشرق

قسم الفلسفة _ السنة الأولى

د. بشرى عباس

• المحاضرة الأولى

مصر طبيعة الكون

إن القاسم المشترك ما بين حضارتي مصر و أرض الرافدين هو الموضوع الأهم للذين يودون معرفة شيء عن تطور الذهن البشري.

كانت الحضارتان ضمن نطاق النظرة الواحدة مختلفتين، و ليست الجغرافيا المقرر الأوحده في مسائل التفاوت الحضاري، غير أن التقاطيع الجغرافية يمكن وصفها وصفاً يكاد لا يدحض. لذا فإن بحث الطبيعة الجغرافية الفريدة لمصر لا بد أن يوحى ببعض عوامل التفاوت في أنحاء الشرق الأدنى هناك تقابل بين الصحراء و الأرض المزروعة و في مصر ما زال هذا التقابل شديداً.

فالرقة المهمة من مصر هي شريط أخضر يعج بالحياة يمتد عبر مناطق سمراء قاحلة حتى أن المرء يستطيع أن يقف على طرف الأرض الخصيب واضعاً إحدى قدميه على التربة السوداء المروية و الأخرى على رمال الصحراء. و البلد يكاد يكون عديم المطر و ما من شيء يجعل الحياة ممكنة سوى مياه النيل. فالقرى الصغيرة تقلص نفسها لأصغر مساحة ممكنة لكي لا تتجاوز على الأطيان الخصبة فإذا ما اعتنى بالأرض الاعتناء الملائم أعطت في السنة غلتين. تكاد تكون هذه الخصوبة مقصورة على وادي النيل فما يصلح للزراعة من مصر الحديثة لا يتجاوز ٣,٥ % و الباقي ٩٦,٥ % صحراء قاحلة غير أهلة. و لعل ٩٩,٥ % من سكان مصر اليوم يعيشون على ٣,٥ % من الأرض التي تقوى على إعاشة سكانها. و هذا يعني أن الكثافة السكانية تبلغ حد الإشباع بالجزء المسكون من مصر بأهله ٢٠٠ ألف لكل ميل مربع واحد الكثافة السكانية في مصر المعاصرة هي من الشدة بحيث تقارب كثافة بلد صناعي كثير المدن لا بلد زراعي عماده القرى.

بالطبع لا توجد لدينا أرقام إحصائية عن سكان مصر القديمة، غير أن المعالم الأساسية كانت و لا شك هي نفسها اليوم و هذا ما جعل مصر تختلف عن جاراتها فعرب فلسطين و العراق يعترفون بالزعامة الثقافية لمصر لأنها أغنى البلاد العربية بمظاهر التحرر. فقد تقبل الناس بمصر أشد الأفكار تباعداً و تبايناً و هذا ما يعبر عنه اليوم بمجموعة من الفلسفات المتناقضة يعوزها النظام فطريقة الساميين و لهم بالصحراء صلة كانت التمسك بالتقاليد تمسكاً لا يلين و مقاومة المستحدثات

لأنها بنظرهم تغير من نقاوة الحياة أما المصريين فكانوا يقبلون على كل جديد دون التخلي عن القديم. و هذا يعني أننا لا نستطيع أن نجد في مصر القديمة نظاماً فكرياً منسجماً فالقديم و الجديد يوجدان معاً.

و لكن إذا كان المصري يتقبل الفكر المتباين فإنه لم يكن بالضرورة يقبل الشعوب الأخرى فهو شبه مدني يتمتع بمظاهر التحرر و يعد الأجانب قرويين جاهلين فكان يميز ما بينه و ما بين الليبيين و الآسيويين و الأفريقيين فكلمة ناس تعني المصريين فالبشر متميزين عن الآلهة، أو البشر متميزين عن الحيوانات بعبارة أخرى إن المصريين ناس أما الأجانب فلا. إلا أن هذا الشعور الانعزالي أو القومي عند المصريين لم يكن نظرية عرقية فكل من يسكن مصر هم أناس دون تفريق في العرق أو اللون فإذا ما أقام الغريب في مصر و حفظ لغتها و تزين بزينة أهلها قبل كواحد من الناس فالشعوب الأخرى حين يتأقلمون قد يقبلهم أهل مصر كمصريين بل قد يبلغ أعلى المراتب حتى مرتبة الملك/ الإله.

هذا و قد نما شعور المصريين بأن أرضهم هي الأرض الوحيدة التي التي لها في الدنيا شأن بمعرفتهم أن الأقطار الأخرى التي كان لهم بها تماس مباشر لم تبلغ من نمو الحضارة ما بلغوه، و كانت بابل و بلاد الحثيين أبعد من أن تهيب مقارنة معقولة، و الملاحظ فلسطين و سورية كانت تقع أحياناً تحت سيطرة مصر و أحياناً تحت زعامة مصر الثقافية و التجارية.

و بالعودة إلى جغرافية مصر يلاحظ أن هناك حواجز تصد عن مصر الأقوام في الجنوب، كما و تصد الصحارى و مياه البحر الأقوام الليبية و الآسيوية. فالشمس تطلع من الشرق صباحاً و تقطع السماء نهراً و تغيب في الغرب مساءً. ولادة الشمس و رحلتها و موتها كلها معالم ثابتة في حياة المصريين، ففي بلد عديم المطر تصبح دورة الشمس ذات أهمية باهرة، فالظل حاجة مطلوبة. غير أن المصري كان يمقت الظلام و البرد فيضطجع سعيداً بمطلع الشمس. لقد رأى أن الشمس ينبوع حياته، ففي الليل الدنيا في ظلام، و لهذا فإن إله الشمس هو الإله الأعلى.

و الملاحظ أن المصريين لم يعترفوا إلا بشيء من الفضل لقوى أخرى الرياح فأكثر الرياح في مصر تهب من الشمال عبر البحر المتوسط فتلطف من حرارة الشمس و تيسر العيش بمصر و هي تناقض الرياح الحارة الجافة التي تهب في أواخر الربيع من الجنوب. و لهذا فقد وصف المصريين ريح الشمال بالريح الطيبة و عبروا عن اهتمامهم بها فجعلوا منها إلهاً صغيراً لكن لا يجوز مقارنته بقوة الشمس. أما النيل فأمر آخر، لقد كان النهر مصدراً جلياً للحياة، لكن ذلك لا ينافس الشمس على مكانتها فللنيل دورة ميلاد و موت على قاعدة سنوية تماثل ميلاد و موت الشمس. هاتان إذن هما الظاهرتان الأساسيتان في المشهد المصري ميلاد الشمس كل يوم و ميلاد النهر من جديد كل سنة، و من هنا استمد المصريون الإيمان بأن مصر مركز الكون. فالشمس و

النيل يتضافران لولادة حياة جديدة غير أنهما لا يعلان ذلك إلا بعد صراع مع الموت فالشمس تدفء و لكنها تحرق أيضاً، و النيل يأتي بالمياه و التربة الخصبة غير أن فيضانه السنوي لا يمكن التنبؤ به. رب فيضان شذ في الإسراف فحطم كل شيء. و ربما شذ في انخفاضه فجاء بالمجاعة. و الصحراء متهيبة دائماً للتعدي على الأطراف، فتحول الخصب لرمل قاحل. كذلك هي مكان للشعابين السامة و بمناطق الدلتا الفسيحة مستنقعات لا بد من تجفيفها لجعلها حقولاً تصلح للزراعة. لهذا كانت مصر غنية بالمقارنة مع جيرانها. إلا أن داخل حدودها تعاني الكفاف و الحرمان .

كذلك المطر لم يستطع المصري فهمه إلا قياساً على المياه الآتية لمصر فيقول المتعبد المصري مخاطباً الإله و معترفاً بفضلته على مصر، يا من تخلق النيل بالعالم السفلي و تأتي به أتى شئت لتعيل البشر. كما أبدى المصري اهتماماً بالبلاد الأخرى فيقول: أنت يا من تخلق ما تحيا به الأقطار النائية فجعلت نيلاً آخر بالسماء، و النيل بالسنا جعلته للأقوام الأخرى و لكل حيوان بالمرتفعات. هذا لا يعني أن المصري يشبه البرابرة بالدواب و إن كان ذلك بعض ما تنطوي عليه العبارة إنما المعنى هو أن الأقوام و الحيوانات كانت تقطن يتصورها المصريون بمقابلتها بوادي النيل فمصر بطحاء من تربة سوداء خصبة أما أي بلد آخر فيتألف من تموجات رملية فالرمز الهيروغليفي لأي بلد أجنبي هو الرمز ذاته لمرتفع أو صحراء و رمز الجبل يماثله كثيراً لأن سلاسل الجبال المحاذية لوادي النيل كانت أيضاً صحراوية. فالبلد المليء بالجبال و الأمطار و الشجر يكون لدى المصري مكاناً بانساً و هذا ما تلخصه العبارة التالية التي كان يرويها المصري: هذا الأسويو التعس ما أسوأ طالع بلده، تبتليه المياه صعب المنال لاكتظاظ أشجاره رديء الطرق لكثرة جباله و هو رجل غير مفهوم إنه لا يقيم في مكان واحد با قدماء في تنقل و هو في حرب منذ زمن قد يغزو قرية منعزلة و لكنه لن يهاجم مدينة أهلة لا تزعج نفسك به ما هو إلا آسيوي.

و هناك ظاهرة طوبوغرافية أخرى بوادي النيل نجد ما يقابلها في النفسية المصرية هي تشابه مناظر الطبيعة. فالنيل يشق الحقول بحيث تناظر الضفة الغربية أختها الشرقية و هذا يناظره أيضاً الصحراء الجبلية الغربية أختها الشرقية فالمصري الذي يرسل نظره حوله في جو صاف لا يرى إلا هذا المشهد نفسه، فإذا رحل مسيرة يومين جنوباً أو شمالاً لا يرى اختلافاً يذكر فيما حوله من طبيعة. فإذا وجدت شجرة عالية منفردة أو تلة غريبة الشكل كان ذلك من الشذوذ بحيث يبدو ذا شخصية فردية، و الحيوانات التي تمر عبر هذا المشهد نظر إليها الإنسان النظرة نفسها هذا ما عكسته الحياة الثقافية بمصر حيث نرى لدى المصر ميراً قوياً للتوازن يظهر هذا جلياً في فنه حيث نجد في كل ما صنع أمانة في التناسب و هذا ما عبر عنه قول أحد الملوك المصريين:

إنني ابن رع المولود من جسده

نصائحي خير خططي تتحقق

أحمي مصر و أدافع عنها

هذا التوازن الذي حققه المصري يستدل عليه بالصور و المنحوتات . كما عبر عنه ناحت مصري بقوله: أعرف كيف أقيم الجبس، و كيف أجعل النسب فيه حسب الأصول. كما يبرز التوازن أيضاً في علم الكون و علم اللاهوت لدى المصريين حيث نراهم يبحثون عما يوازن كل ظاهرو يلاحظونها فإذا كان هناك سماء بالأعلى فلا بد أن يكون هناك سماء سفلى و لا بد لكل إلهة من قرين.